

كنعان النشرة الألكترونية
Kana'an – The e-Bulletin

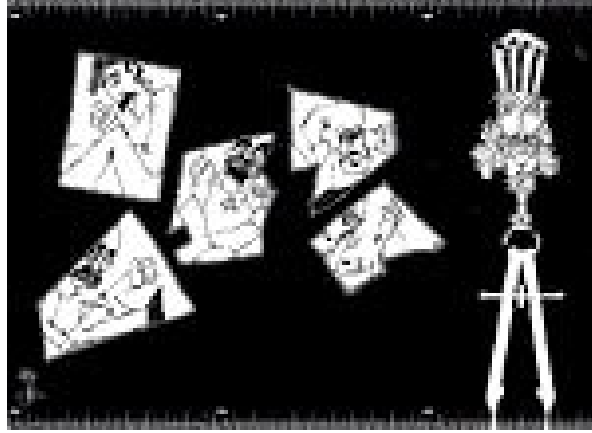
السنة الثامنة – العدد 1583

2 يوليو (تموز) 2008

الأوهام القطرية ليسار الاجتماعي الأردني

هشام البستاني*

<http://www.kanaanonline.org/articles/01583.pdf>



رسم الفنان نضال الخيري

ملاحظة قبل القراءة:

هذه هي الورقة الموسعة عن المقال المكثف الذي نشر تحت نفس العنوان في عدد الاثنين
2008/6/30 من صحيفة الاخبار اللبنانية، يمكن الرجوع اليها على الرابط <http://www.al-akhbar.com/ar/node/78974>

مدخل: ازمة اليسار العربي

منذ انهيار الاتحاد السوفيتي والمنظومة الاشتراكية، واليسار العربي بكافة اطيافه وتجلياته يعاني من ازمة كبرى تمتد جذورها الحقيقية الى البدايات التأسيسية. وشهد العقدين الاخيرين بروز تحولات عجائبية في هذا اليسار، مثل ذات التحولات التي عانى منها اليسار على مستوى العالم. فالبعض انحدر نحو الليبرالية الفاقعة والانضمام الى البرنامج الامريكي، وآخرون وجدوا انفسهم فيما يسمى استسهالا "المجتمع المدني" ومنظماته، بقضاياها المتمركزة حول "الديمقراطية" و"حقوق الانسان" و"حقوق المرأة" وغيرها من المفاهيم ذات المحتوى الليبرالي نائين بانفسهم عن العمق الطبقي الضروري لأي خطاب تحرري جدي، ومنهم من دخل بكل اندفاع بزنس "المنظمات غير الحكومية" الممولة من مؤسسات هي جزء لا يتجزأ من المراكز الامبريالية وبرامجها، بينما تفوق آخرون على انفسهم داخل البنى الستالينية التقليدية وتحولوا في احيان كثيرة الى تمثلات عائلية او طائفية يُفدّم فيها المنفعي والذرائعي على المهمات الثورية التي ما عادت "موضة الموسم"، وتم التخلي عنها جهارا اثر تبني مقولات "العمل العلني" و"الديمقراطي" و"القانوني" - الخدع التي تمكنت من خلالها الانظمة الحاكمة اللاشرعية من الحصول على شرعية القوى السياسية المعارضة، وانجرت هذه الاخيرة الى ملعب الانظمة التي تحولت الى مرجعية لا فكاك منها، فدفعت القوى المعارضة بنفسها الى الانتحار السياسي البطيء.

ملأ الفراغ والتعطيل السياسي: السلطة والاسلاميون ومحاولة انتاج يسار

في عصر النيولبرالية والهيمنة الاقتصادية والشركات المتعدية للحدود واستحواذ رأس المال والطبقات المرتبطة به على السلطة بالكامل في المراكز والاطراف، لا وجود ليسار عربي، وبالتالي لا وجود لمشروع حقيقي يجابه الرأسمالية ويقدم بديلا لها. وبينما تملأ أحزاب السلطة والتيارات الدينية المختلفة الفراغات الشعبية الناتجة عن انحسار القوميين واليساريين، تتجمد السياسة، فكلاهما لا تستطيعان القيام بأي مشروع تحرري حقيقي خارج سياق الرأسمالية.

فالاولى (السلطة) تابعة بالكامل وتتحقق مصالحها من خلال المشروع المعادي، بينما الثانية لا تجد تناقضات كبرى بين الرأسمالية وبينها، بل انها تقدم خطاباً اجتماعياً محافظاً، وخطاباً اقتصادياً "معتدلاً" في احسن الحالات وليبرالياً في اسوأها. والراديكالية السياسية لبعض تيارات الاسلام السياسي لا تخرج عن بنية راديكالية اجتماعية/اقتصادية، بل هي تعبير عن صراع على السلطة يمكن القيام لأجل الانتصار فيه، بتسويات مع الخصوم المفترضين (الحزب الاسلامي العراقي والاخوان المسلمون في سوريا كأمثلة فاقعة).

بينما تقوم الانظمة بخصخصة وبيع كل شيء، من الثروات الطبيعية وحتى الاراضي، يراوح المشهد السياسي الرسمي المعارض الفعال (سنتناول الاردن كمثال) بين: أ- "الحرس القديم" من بيروقراط وزعامات عشائرية كانت جزءاً مفصلياً من السلطة السياسية سابقاً، ولا يملكون الشجاعة الموضوعية لفصل انفسهم عنها حالياً (معارضة نهج السلطة السياسية مع الاصرار

على اعلان الولاء لها!) ناهيك عن عجزهم الكامل فيما يتعلق بتقديم رؤية اقتصادية/اجتماعية لأرأسمالية، فلا وجود لديهم لتقاليد ثقافية او ايديولوجية؛ و ب- الاسلاميون الذين ليس عندهم تناقض حقيقي مع الرأسمالية و "اقتصاد السوق"، وهم غير معنيين -خارج السياقات السياسية المتمثلة بالاستحواد على السلطة وتنفيذ برنامجهم الاجتماعي المحافظ- باحداث تغييرات اقتصادية كبرى على صعيد البنى، ناهيك عن صراعاتهم الداخلية الحالية بين تيار قاعدي راديكالي بدأ يصعد بقوة، وآخر كان تاريخيا هو التيار القائد والمهيمن، وهو حمائي الطابع واكثر قربا من دوائر السلطة. هذا الصراع، ومنذ بدايته، عطل الاسلاميين عن المشاركة السياسية الفاعلة، وسمح باختراقات كبرى في مفاصل مهمة مثل البرلمان (نزولهم الى الانتخابات من الاساس) والنقابات المهنية (تحالفهم مع تيارات محسوبة على السلطة السياسية وصعود رموز من هذه الاخيرة الى اعلى المواقع القيادية في النقابات مما اوقف نشاطها الوطني والسياسي بعد ان كانت قبل خمس سنوات فقط من اقوى المؤسسات سياسياً في البلاد).

اذا صار هناك تناقض موضوعي واضح: على الارض هناك حاجة ملحة لوجود يسار لأنه الوحيد المؤهل موضوعيا ليكون طرفا في صراع تناحري مع الرأسمالية، وعلى الارض ايضا لا وجود لمثل هذا اليسار. هناك حاجة ملحة ليسار غير موجود. هذا التشخيص دفع بعدة مجموعات الى محاولة ايجاد قوة يسارية قادرة على بناء نفسها والتحول الى الاداة التاريخية والموضوعية لمواجهة النيولبرالية، ومن ثم التحول الى قوة جماهيرية في سياق عجز القوى الاخرى عن تقديم حلول.

واحدة من هذه المجموعات هي مجموعة "اليسار الاجتماعي الاردني"، والتي ظهرت كتشكل جديد رغم انها استمرار لمحاولات سابقة يزيد عمرها عن العشر سنوات (بدأت بما يسمى "اليساريون الوندويون" لتمر بعدة تعبيرات مثل جمعية مناهضة العولمة الرأسمالية، والمنندى الاجتماعي الاردني) لانتاج اطار سياسي "شرق اردني" يكسر احتكار تمثيل السلطة السياسية لشريحة العشائر والعائلات "الشرق اردنية"، ويفقدها بالتالي احد اهم روافعها، وتحولت مع الوقت وعدم الاستساغة الشعبية لهذا المنطق الانعزالي واتساقه مع برنامج السلطة القائم على تقسيم المجتمع في الاردن على قاعدة "شرق أردني" / "فلسطيني"، الى تنظيم يدعو الى "الهوية الاردنية" التي تنبع منها "الوطنية الاردنية".

فيما يلي مقارنة نقدية لأطروحات اليسار الاجتماعي هي حصيلة نقاشات وتبادل مكثف للأفكار مع العديد من الاصدقاء، أهمها النقاش الذي دار مع المفكر الماركسي المعروف، الصديق الدكتور هشام غصيب، وآخر مع الأمين العام الاسبق للحزب الشيوعي الاردني، الصديق الدكتور يعقوب زيادين. وقد تفضلا بالاطلاع على مسودة هذه المقاربة، معبرين عن اتفاقهما مع خطوطها العامة، فوجب الاشارة اليهما بالتقدير.

"الفطر" ليس صنيعة سايكس - بيكو؟

تكمن الاشكالية الكبرى في الاداة التي اختارتها مجموعة اليسار الاجتماعي للتعبة: ترسيخ الهوية القطرية، واعتبار الاقطار التي رسمها الاستعمار في اتفاقياته المتتابعة منذ سايكس-بيكو وما بعدها (1)، كيانات شرعية يمكن استقاء مفهوم "الهوية" منها واعادة مفهوم "الوطنية" اليها، بل والتنظير لامكانية القيام بمشروع تحرري حقيقي داخل اطار هذه الكيانات.

يقول احد أهم مؤسسي اليسار الاجتماعي الاردني ومنظره الرئيسي: "التطورات الحاصلة في البلاد، تمنح اليسار الاردني... آفاقا للتحويل الى حركة سياسية جماهيرية فاعلة.. لكن ذلك يظل مرهونا بالتوصل الى حلول فكرية سياسية جديدة ازاء ثلاث قضايا رئيسية"، يضع على رأسها ما يسميه: "ايدولوجية الوطنية الاردنية" و"الدولة [الاردنية] ودورها الخاص في المشرق العربي" (2).

ويدفع هذا المؤسس والمنظر أكثر من ذلك، فهو يقول بأن الاردن "ليس صنعة سايكس بيكو" (3)، وأن الاردن لم تكن جزءاً من بلاد الشام: "عاش الأردنيون على حدّ الصحراء، ليسوا منها لكنهم ليسوا من الشام... وهو ما أعطى الأردنيين عبر التاريخ، للمفارقة، أهمية سياسية مضاعفة، وثقفهم دائماً بالانتماء حدّ الذوبان في دولة محلية..". (4)، بل ويدعم نهجا يؤكد على ان الهوية السياسية للأردن نشأت في **الالف الاول قبل الميلاد** "مع ولادة الممالك العمونية والمؤابية والأدومية!!" (5)، ويؤكد على أن في الشام (التي لا ينتمي لها الاردن بحسب تنظيراته ذاتها) "دولتان مركزيتان: الدولة السورية - وامتدادها لبناني، والدولة الأردنية - وامتدادها فلسطيني..". (6)

كما يعتبر هذا المنظر أن القطر الاردني تميّز تاريخيا عن محيطه بصفته كتلة اجتماعية متميزة جاءت تعبيراً عن مُتحدّ بدوي - فلاحى يرقى الى شكل "الدولة": "ما الذي يمنع التفكير في أنموذج المجتمع - الدولة، المتحدّ الفلاحى - البدوي، أي الزراعى - المقاتل. أليست هذه التركيبية أيضاً هي، بمعنى خاص 'دولة' (7). هذا "المتحد" فرض في النهاية شروطه على الامبراطورية البريطانية من خلال مؤتمر أم قيس (1920) حيث كانت "المطالب الأردنية هي تصوّر للتسوية مع الإمبراطورية البريطانية التي تعلمت من تاريخ الإمبراطوريات في المشرق أن شرق الأردن لا يُحكم مباشرة" مما ادى الى رضوخ البريطانيين وتشكل القطر الاردني ف"نجمة العلم الأردني تقررت في 'أم قيس'، وليس في لندن أو مكان آخر" (8).

هذه النظرة القطرية وجدت طريقها بقوة الى البيان التأسيسي للييسار الاجتماعي الاردني: "هذا البديل [البديل عن الليبرالية الجديدة] المطلوب تحقيقه من أجل تأمين متطلبات التقدم الاردني، لا بد من انجازه خلال العقد القادم. وهو شرط ضروري لضمان مستقبل الاردن ككيان ومجتمع"، والقائمون عليه لا يكتفون فقط بالتنظير للأفق القطري ومشروعيته وامكانية انجاز تحرر من

خلاله، بل يتجاوزون ذلك الى ما هو أخطر: محاولة تأسيسه ثقافياً كهوية، ونتاج التنظير اللازم لذلك، الى الحد الذي يعتبرون فيه أنفسهم "جسد الوطنية الاردنية" (9).

خرافة التأسيس التاريخي للقضية: موقف الآباء المؤسسين

ينسى اليسار الاجتماعي أن "الآباء المؤسسين" الذين يدعون امتداد جذورهم اليهم، كانوا على النقيض الكامل منهم، فمنذ العام 1919 "احتج عربان البلقاء وعشائرهم على قرار تقسيم البلاد [بلاد الشام] وجعل فلسطين وطناً لليهود.. وارسلوا بتاريخ 1919/11/19 برقية الى الحاكم العسكري بدمشق قالوا فيها: 'نحن عربان وعشائر البلقاء نقوم بالمظاهرة احتجاجاً على كل تسوية تقضي بتجزئة البلاد وحرمانها من استقلالها التام... وجعل جنوبها موطناً لليهود... ونعلن للعموم اننا مستعدون لاراقة دماننا في سبيل استقلال بلادنا والاحتفاظ بوحدتها... والآن بكل قوانا وعموما بلساننا وبأيدينا التي هي قبضة سيوفنا اللامعة نطلب رفض القرار الأخير وعدم تجزئة سوريا مع حفظ استقلالها التام ورفض الصهيونية..' (10).

وبتاريخ 1919/12/4 "أقام النادي العربي بلواء البلقاء حفلة تكريم لزعماء بني صخر وزعماء بني حسن ومشايخ العجارمة وابو الغنم ووجهاء عمان والسلط والشراكسة... وتباحث المجتمعون في مصير بلادهم وصدروا البيان التالي: 'نحن ممثلي البلقاء من الحضر واهل البادية نجتمع بكل قوانا على القرار والمؤامرة المنعقدة بين المستر لويد جورج والمسيو كليمانصو بتجزئة البلاد العربية السورية... اننا قوم لا نصبر على ضيم وسنسمح هذا القرار الجائر بدماء عربية'... وبحسب كتاب تاريخ السلط والבלقاء [ل] محمد علي الكردي الصويركي، عندما زار ضابط الارتباط البريطاني السلط في 1919/10/12 قدم له الشيخ نواف الفايز عريضة باسم ثلاثين ألف بدوي يحتج فيها على الاتفاق الذي تم بين انجلترا وفرنسا [ل] تجزئة البلاد العربية والهجرة اليهودية... 'والا لسنا مسؤولين اذا ما قاومنا كل اعتداء على قوميتنا والتلاعب بشؤون بلادنا ولا نرهب اية قوة تنازلنا في ميادين القتال'. كما شارك اهالي البلقاء في اعمال المؤتمر السوري الذي افتتح في حزيران عام 1919" (11).

وهو نفس الرأي الذي خلص اليه المؤتمر العربي الفلسطيني الأول المنعقد من 1/27 الى 2/10 من نفس العام (1919) في القدس: "ان فلسطين هي جزء من سوريا العربية، وهي لم تنفصل عنها في اي وقت من الاوقات، ونحن مرتبطون بها بروابط قومية ودينية ولغوية وطبيعية واقتصادية وجغرافية... ان مقاطعة جنوب سوريا [أي فلسطين] لا يجب ان تنفصل عن الحكومة العربية السورية المستقلة ويجب ان تكون حرة من الحماية والهيمنة الاجنبية." (12).

هذا الرأي "الفلسطيني" سيزوره لاحقاً دعاة الانعزالية والشوفينية ليصنعوا هوية مزورة أخرى تتكامل مع وتبرر وجود باقي الهويات المزورة المختلفة كما سنشرح لاحقاً.

خرافة التأسيس التاريخي للقطرية: موقف الرموز

لا يجد اليسار الاجتماعي اية مشكلة في توظيف شخوص تاريخية مناقضة لطروحاتهم تماماً في جهودهم الدعائي، فالرموز الثلاثة للييسار الاجتماعي هم: شيوعي أثبتت سيرته وعضويته الفاعلة في اربعة أحزاب شيوعية عربية على الأقل انه مناهض كبير للقطرية (غالب هلسا)، وبعثي قومي مناهض للقطرية بالضرورة الايديولوجية (تيسير سبول)، وشاعر بوهيمي وجد في حرية العجر اللامنتمية لأي جغرافيا ملاذاً أكبر (عرار – مصطفى وهبي التل). ان اي واحد من هؤلاء لو كان حياً لتبرأ فوراً من هذا التوظيف الشوفيني الضيق لكونهم "شرق أردنيين"، وسيرفض ان يحصر هوياتياً في هذه الزاوية، لكنهم – وللأسف- غير حاضرين ليردوا، ولعل هذا السبب بالذات هو ما دفع باليسار الاجتماعي لاستعمالهم نقيضاً لما كانوا عليه في حياتهم.

خرافة التأسيس التاريخي للقطرية: أكنوبة المتحد البدوي - الفلاحي

تبقى نظرية "المتحد البدوي – الفلاحي"، وهو متحد مُتوهم ومفبرك لم يكن قائماً، فالصراع بين الراعي والفلاح معروف منذ اقدم الميثولوجيات (قابيل وهابيل مثلاً)، ولا يختلف ذلك في القطر الاردني حيث كانت العلاقة قائمة على الصراع المعروف تقليدياً بين البدو الذين يغزون الفلاحين (بالامكان الرجوع الى رواية غالب هلسا "سلطانة" ومجموعته القصصية "زواج وبدو وفلاحون" للمزيد حول هذه المسألة)، اي أنه لم يكن متحداً بالاساس، اضافة الى ان طرفي هذا المتحد الافتراضي كانوا متوزعين على جغرافيات متعددة لا علاقة لها بالقطر الذي يفترضه منظر اليسار الاجتماعي.

فمن المعروف أن عشائر بدو الجنوب تمتد مناطقها بين جنوب الاردن وشمال غرب السعودية، في حين تمتد مناطق بدو الوسط الى من شرق الاردن الى اطراف غرب العراق، في حين ان مناطق بدو الشمال تمتد من شمال غرب الاردن الى جنوب غرب سوريا، ولكل منهم علاقات قوية مع الدول التي تمتد اليها مناطقهم حتى أن بعض ابنائهم يحمل جنسياتها.

أما الجزء الفلاحي/المديني فعمقه كالتالي:

أ- اربد والرمثا والشمال عموماً (بما في ذلك جرش وعجلون) عمقها حوران وهي امتداد لها.

ب- السلط ارتباطها التاريخي معروف بنابلس غرب النهر اجتماعياً وتجارياً.

ت- الكرك ارتباطها التاريخي معروف بالخليل غرب النهر اجتماعياً وتجارياً.

اي ان الارتباط او "المتحد" كان في الحقيقة باتجاه الشمال والغرب، لا الشرق: متحد فلاحى – فلاحى، لا متحد فلاحى – بدوي.

ويظل وجود عائلات التجار الشوام (الدمشقيين) منذ اواسط القرن التاسع عشر في كل انحاء البر الشامي (من بيروت، الى نابلس والقدس، الى اربد وعجلون وجرش وعمان والسلط والمفرق والكرك وصولاً الى معان التي تنقسم الى حارتين: حارة شامية وحارة حجازية) دليلاً دامغاً على محورية دمشق كمركز تجاري بدأ يتمدد الى الاطراف كمقدمة موضوعية لتشكّل "السوق القومية" التي تسبق عادة تشكّل الدول القومية. وليس ادل من زحف الحسين بن علي من الحجاز الى دمشق على أن الشروط الموضوعية لقيام الدولة العربية (مملكة فيصل التي لم تُعمّر) لا تتحقق إلا في الشام/المركز، لا في الحجاز، ولا في عمان، ولا في القدس، ولا في بيروت.

تضليل الجماهير القائم على امكانية التحرر القطري

غاب عن اليسار الاجتماعي الاردني ان التحرر لا يكون في سياق القطر، ويحتاج الى اسس موضوعية (موارد وناس وثقافة وامكانيات وعمق استراتيجي.. الخ). لقد صُمم القطر من قبل الاستعمار، فلا مؤتمر "أم قيس"، ولا المؤتمرات الاكبر والاعظم منه بمرات كثيرة (مؤتمرات دمشق)، استطاعت أن "تفرض" على الاستعمار اية تسويات و حدود، بما في ذلك "حدود" المشروع الصهيوني، فالذي منع امتداد المشروع الصهيوني الى شرق الاردن في النهاية، كان بريطانيا نفسها لا مؤتمر "أم قيس" ولا أي مؤتمر آخر (13). والقطر صممه الاستعمار ليكون، بنيوياً، تابعاً وملحقاً بالضرورة، معوقاً لناحية الموارد، ولا يملك اي عمق استراتيجي بذاته، وهو غير قادر على انجاز مشروع تحرري كامل.

سيقولون: "ها هو حزب الله. بضعة آلاف هزموا الجيش الصهيوني ومرغوا كرامته في الارض". صحيح، ولكن هل يعمل حزب الله بعمق لبناني؟ حزب الله يفهم معنى العمق الاستراتيجي وادارة الصراعات وابعادها الاقليمية، لذلك فهو يستند الى محور سوري-ايراني، ويطرح خطاباً ومقاربات عروبية جعلت من السيد حسن نصر الله رمزاً شبيهاً بعبد الناصر. نهاية حزب الله ستكون عندما يتفوق ليصير "لبنانياً" خالصاً كحال قوى 14 آذار التي تريد ان تدفع بـ"اللبننة" الى الآخر. حينها لا مناص الا الوقوع في احضان رعاة 14 آذار: الوطن/القطر مرتبطه في واشنطن وتل أبيب، لا خيار آخر.

الوطن القطر هو مثل قطاع غزة: في اللحظة التي تصعد فيها قوة لا تعجب الامبريالية تماماً في واحدة من هذه "الاطوان"، لن يكون من الضروري تحريك الجيوش ولا دفع الجنود لتصفيتها. من مكتبه في واشنطن سيأمر سيد العالم الامريكي بوقف القروض والهبات، ومنع التحويلات المالية، ووقف التصدير، وربما قطع الامدادات النفطية والغذاء، وينتهي الأمر!!

المعركة مع الامبريالية والصهيونية في المنطقة العربية هي معركة أممية، قومية في الحد الأدنى. مواجهة الامبريالية والصهيونية بالمشروع القطري هي المعركة المستحيلة. المعركة الخاسرة سلفاً. وكم ستفرح الامبريالية بمعركة خاسرة سلفاً، وكم هو عبثي تعبئة الناس والشباب ضد العدو باعطائهم اسلحة مائية! إن دفع الناس الى الانتحار الهوياتي والصراع المحسوم سلفاً بالخسارة ليس مسألة عابرة. يعرف منظرو اليسار الاجتماعي الاردني ذلك تماماً، رغم خطابهم السياسي الراديكالي على المستوى الداخلي. لنحلل مقاربتهم لحل الصراع العربي الصهيوني.

الاعتراف المتبادل لـ "الاشراقيات": هوية وطنية اردنية، هوية وطنية فلسطينية، وقومية يهودية

يقول المنظر الرئيسي اليسار الاجتماعي الاردني: "كثيراً ما عرضت قضية اللاجئين بطريقة ملتبسة، شعاراتية تخجل من واقعتها المريرة... ولعله حان الوقت لكي نعيد تعريف تلك القضية باعتبارها قضية مواطنين اسرائيليين وفقاً للقانون الدولي، ترفض دولة اسرائيل منحهم الجنسية وحقوق المواطنة، وعلى رأسها حق الإقامة في دولتهم [اسرائيل]... 'الاعتدال' و'الممانعة' معاً اصبحا الآن من الماضي.. وشعار الدولة المستقلة بلا معنى، بينما شعارات الرفض بلا أفق... ان الاتجاه الى حل تاريخي للقضية الفلسطينية يقوم على اساس دولة علمانية مزدوجة القومية تقوم على الاخاء العربي - اليهودي، يلغي الاساس السياسي والاخلاقي للعنف المسلح داخل فلسطين"!!!! (14).

اذاً، الصراع العربي الصهيوني هو مسألة فلسطينية فقط، بل هو مجرد قضية مواطنة في الدولة الاسرائيلية. كما يُقرّ هذا المنظر بأن اليهودية قومية (وهذه هي الخرافة الكبرى المحددة للصهيونية)، وبالتالي فالدولة المقترحة هي دولة ثنائية القومية، قائمة على الاخاء العربي اليهودي (لم يقل الصهيوني - مقرأً بذلك باختطاف صهاينة "اسرائيل" لليهودية، ولم يقل ان هؤلاء اليهود الذين يدعوننا للتأخي معهم هم ذاتهم الصهاينة الغزاة المستعمرون وليسوا يهوداً ونقطة!)، وهي التي ستلغي العنف المسلح داخل فلسطين (وهو التعبير المفضل لدى الامريكان والاسرائيليين لوصف العدوان الصهيوني والمقاومة الفلسطينية، كله بقلب بعضه، عنف مسلح من الجهتين متساوي الكم لا فرق فيه بين الجلاذ والضحية!!).

ها هو المحتوى التسويحي لخطاب اليسار الاجتماعي الراديكالي يطل علينا في وقت أقرب بكثير من المتوقع، فالمقاربة للصراع الاكبر في المنطقة مع المشروع الامبريالي/الصهيوني تدور حول دولة ثنائية القومية: حل تسويحي مثالي مُتخيل يعترف بالصهيونية بتبنيها قومية لليهود تمتلك شرعية الاستعمار الاستيطاني تحت بند الدولة/القطر في فلسطين، وهي النتيجة الموضوعية للمقدمات القطرية! (15).

اليسار، ذو الطبيعة الاممية والمناهضة للشوفينية والقومية المنغلقة، والذي حارب بشراسة النزعات الفاشية وانتصر عليها في اوروبا، يراد له أن يتحول في الاردن على يد اليسار الاجتماعي الى يسار ينظر لهوية تقوم على قطريّة صنعها الاستعمار، يسار يجعل من الاردنيين "أمة" أو "هوية سياسية ناجزة" على أقل تقدير، ويجعلهم كمنظرائهم "الفرعونيون" في مصر و"الفينيقيون" في لبنان، ليسوا "عرباً" بل "عمونيون ومؤابيون وأدوميون" - متميزون تاريخياً عن محيطهم، بنفس الطريقة التي تميز فيها دعاة الاقليمية الفلسطينية عن محيطهم بدعوى "خصوصية الصراع"، مؤججين ذلك التمايز بخرافة تخلي العرب (كل العرب، وليس فقط الانظمة العربية) عن القضية الفلسطينية، مما جعلهم ينجحون في النهاية (وبالتواطؤ مع الانظمة اياها) بسلب هذه القضية عن عمقها العربي ليستطيع "الممثل الشرعي والوحيد" الفلسطيني السير بسرعة لعناق عدوه الاسرائيلي بذريعة ان الآخرين تخلوا عنه ولم يعد لديه اي مكان آخر ليلجأ اليه!

بل ان "الهوية" الفلسطينية تلعب دوراً رئيسياً في صناعة "الهوية" الاردنية. ففي الاردن، لا يوجد "الأردني" الا اذا وجد "الفلسطيني"، والعكس، على قاعدة وحدة الاضداد الهيغلية/الماركسية. هذه الضرورة الوجودية نجدها ايضاً في التنظيرات التاريخية لليسار الاجتماعي. ففي مراجعة نشرت في مجلة الرأي الآخر للسفر الاركيولوجي لهوية الاردن السياسية الموجودة منذ الالف الاول قبل الميلاد (تاريخ الاردن في العصور القديمة لزيدان كفاي) يقول المراجع:

"لا حيادية التأريخ ازاء الاردن تتمثل، برأي الكاتب، في مجالين اثنين: الاول، اخضاع هذا التأريخ، او بالاحرى تبديده، لصالح الروايات التوراتية، والثاني، ميل العديد من الباحثين وعلماء الآثار الغربيين الى تغييب هذا التاريخ واعتباره جزءاً من التاريخ الفلسطيني القديم. وفي خضم هذا التصدي لهذين الانحيازين، يجد المؤلف نفسه منهمكا بقوة في "التنقيب" عن الهوية الوطنية للاردن". (16).

لقد تعمد المؤرخ هنا ان يفصل بين التاريخ التوراتي والتاريخ الفلسطيني. فهو يريد (رغماً عن المنطق الذي يحكم بأن لا تاريخ لفلسطين خارج تاريخ بلاد الشام) ان يقول ان هناك "تاريخاً فلسطينياً" متميزاً عن تاريخ المنطقة، تماماً كما يقول منظرو الصهيونية ان البقعة الجغرافية المسماة حالياً فلسطين، لها تاريخ منفصل ووجود متميز عما حولها، وهي ليست امتداداً طبيعياً لجغرافيا ومجتمع الاقليم الشامي، وكانت هذه هي المقدمة الاولى لانشاء "اسرائيل" في فلسطين.

كان يجب اختراع فلسطين منسلخة عن امتدادها العربي الطبيعي بتاريخ منفصل لتقوم "اسرائيل". وبالمقابل فإن ذات التاريخ الفلسطيني المنفصل هو الذي سيُمكن المؤرخ (الذي يصر على الرواية الصهيونية بوجود تاريخ فلسطيني تم الحاق التاريخ الاردني به) من اختراع الاردن اركيولوجياً!!

اليسار الاجتماعي والسلطة السياسية في الاردن: الالتقاء الهوياتي

المتابع للتحويلات السياسية في الاردن سيلاحظ تحولاً كبيراً في تعاطي السلطة السياسية في الاردن مع المجتمع. الاستقطاب الكبير المصطنع الذي أقيم على ثنائية "شرق اردني"/"فلسطيني" المصطنعة أصبح في المرحلة الحالية عبئاً لعدة اسباب: ان هذا الاستقطاب لا يتسق واستحقاقات التوطين السياسية؛ ولأن الاستقطابات بين كتل اجتماعية كبيرة نسبياً قد تولد تبعات كبيرة وقد لا يكون من السهل توظيفها او التحكم بها، ولأن تحالف الاثرياء الكومبرادوريون الجدد القائمون على البرنامج النيولبرالي له مصالح أبعد من أن يخدمها مثل هذا الاستقطاب، بل ان هذا الاستقطاب تحديداً يعطل بعضاً من آليات عمله.

لهذا خرجت السلطة بصيغة "وطنية" جديدة: "كلنا الاردن" و"الاردن أولاً". الاولى ("كلنا الاردن") تعنى بتذويب الاستقطاب الكبير المفتعل في سياق هوية "وطنية" مخترعة ينضوي الكل تحتها ليصار الى تفنيهم بشكل ادنى على قاعدة الجهة والعشيرة والعائلة والمنطقة الخ، وبآلية اثبتت نجاحاً منقطع النظير وهي قانون الصوت الواحد الانتخابي الذي تُسخ بدوره الى الانتخابات البلدية والجامعات ويراد فرضه على النقابات. والثانية ("الاردن أولاً") تعنى بسلخ الاردن عن الوطن العربي واعلانه وطناً مكتمل العناصر تُقدم مصالحه على مصالح أعمق ذات ابعاد لها علاقة بالعروبة والمشروع التحرري العربي، أي التبني النهائي للبراغماتية القائلة بأن توازنات القوى الحالية ومصالح الاردن تفرض عليه التحالف استراتيجياً مع الولايات المتحدة و"اسرائيل". (17)

من المعروف أن السلطة السياسية في الاردن لا تملك متقنين، مثلها مثل مجمل الانظمة العربية، ولم تتمكن عبر عشرات السنوات التي مضت من انتاج "خطاب ثقافي يميني" ينظر لمواقفها السياسية فكرياً. كل ما تملكه السلطة هو مجموعة من الكتاب الصحفيين المكشوفين عموماً للجمهور. لقد جاء اليسار الاجتماعي الاردني بتنظيره حول "الهوية الوطنية وايدولوجيتها" ليسد فراغاً قاتلاً لدى السلطة السياسية، خصوصاً وان هذا الخطاب يتسق تماماً مع برنامجها في ترويج مفهوم "الثقافة الاردنية" (بدلاً من "الثقافة العربية") كانعكاس مباشر للـ"هوية الاردنية" وانتاج لها على حد سواء.

لهذا لن يصعب علينا استيعاب كيف ان اليسار الاجتماعي الاردني الذي يضع نفسه في مقدمة المعركة ضد النيولبرالية، يتفق تماماً مع مقولات أحد أهم دعائها وهو فهد الفانك، الكاتب الاقتصادي المعروف ورئيس مجلس ادارة الصحيفة "الحكومية" الاولى في الاردن - صحيفة الرأي. يدفع الفانك في مقال عنونه بـ "الاردنيون يكتشفون ذواتهم" (18) الى ان هناك "فرصة تاريخية" امام الاردنيين لكي يحولوا أنظارهم نهائياً من الخارج/الغير (العربي) الى الداخل/الذات (القطري)، وهذه الفرصة التاريخية هي بسبب "بروز الوطنية الاردنية" (التي

ينظر لها اليسار الاجتماعي) وضعف المراكز العربية الكبرى (مصر وسوريا والعراق). اذاً هي فرصة مصطنعة يقر الفانك بـ"انتهازيتها" نظراً لكون اللحظة المؤاتية لها هي لحظة ضعف المراكز المؤهلة لقيادة مبادرات عربية. ويخلص الفانك الى ان شعار "الاردن أولاً" هو "دعوة لبناء قطر عربي أنموذج ليكون وطناً نهائياً بانتظار قيام دولة الوحدة العربية" دون أن يشرح لنا كيف لا تتناقض نظريته في "الوطن القطري النهائي" (التي يتسق بها مع اطروحات اليسار الاجتماعي) مع الانفتاح على "العالم العربي" و"الوحدة العربية" والمشروع التحرري العربي!!

نفس أطروحة اللاتناقض بين "القطري" و"القومي" و"الأممي" نجدها لدى اليسار الاجتماعي الاردني، في تناقض مع ايسر مفاهيم الديالكتيك التي تقضي بضرورة حسم التناقضات الناتجة عن الصراعات (الفكرية وغيرها) لا الاتجاه الى اختلاق خطاب تسويي/توفيقي يؤجل حسم الصراعات ويميعها الى مراحل لاحقة معيماً بذلك التقدم التاريخي. (19)

تزوير الهوية القطرية وتزوير اليسار: يسار "وحداتي" ويسار "فيصلاوي"!!

المجتمع الذي قسمته السلطة الى "فلسطينيين" و"شرق اردنيين" (وحدات وفيصلي في ملاعب كرة القدم المحلية) لتحافظ على نفسها في موضع التحكم، يريد اليسار الاجتماعي ان يجعله حالة "موضوعية"، فالسؤال الافتتاحي الكبير الذي استهل به مدراء موقع اليسار الاجتماعي في افتتاحهم لمنتدى الحوارات الحرة بين الشباب (لاحظ: بين الشباب!) كان السؤال الهام التالي: "ما الموقف الواجب اتخاذه اتجاه اليسار الفلسطيني في الأردن؟ والى أي مدى يضيف هذا اليسار إلى اليسار الأردني؟ أم انه يضعفه؟" (20).

منظرو اليسار الاجتماعي يريدون أن يقسموا اليسار في الأردن الى يسارين: اليسار الاردني، واليسار الفلسطيني في الأردن. والفكرة التي يريد من صاغ السؤال ان يقدمها مواربة هي ان اليسار الفلسطيني يُضعف اليسار الاردني، وعليه فان اليسار الاردني "الاجتماعي" يجب ان يحسم المسائل، وربما عليه ان يخوض معركة تصفية اليسار الفلسطيني، بدلا من خوض معركة توحيد اليسارين في مواجهة الامبريالية والصهيونية واعوانهما المحليين!

خلاصة: لا "شرق أردني" ولا "فلسطيني" – ضرورة النضال المافوق قطري للانتصار

ان اليسار الاجتماعي في اطروحته القطرية يريد أن يستغل التخوفات الكبرى التي تتولد عند جمهور كبير من "الشرق-اردنيين" والناتجة عن مشروع التوطين واحتمالات تصفية القضية الفلسطينية في الأردن وعلان الأردن دولة فلسطينية (الطرح الاستراتيجي لليمين الاسرائيلي والتي من المرجح ان تُقبل أمريكياً - تصريحات مستشار ماكين الأخيرة كمثال)، وهي تخوفات

حقيقية ومشروعة، لصالح ايجاد تعبئة عامة "شرق-أردنية"، هي بذاتها ستولد استقطابات خطيرة مع جمهور "فلسطيني" (والعكس) بحكم قانون وحدة وصراع الازداد.

بالمعنى الهوياتي، ضد "الأردني" هو "الفلسطيني" لا "الاسرائيلي"، لأن مسألة تحقق الهوية والكيانية "الأردنية" هي مسألة متعلقة بحسم الهوية والكيانية "الفلسطينية"، ولا علاقة لها بـ"اسرائيل". "اسرائيل" تظهر في الصورة فقط عند هؤلاء الفطريين عندما يراد اقامة "دولة فلسطينية في الاردن" أو "حل القضية الفلسطينية على حساب الاردن" أو "توطين اللاجئين الفلسطينيين في الاردن"، وهو دليل اضافي على التعلق المذكور.

بهذا سيتحول الموضوع من صراع طبقي تناحري مع الكيان الصهيوني والامبريالية والمشروع النيولبرالي، يهدف الى كنسها جميعاً من المنطقة كنساً نهائياً آخذةً معها الاشكال القطرية من حيث هي إحدى الشروط الموضوعية المانعة للانتصار، الى صراع داخلي على التشكل القطري ذاته يهدف الى ضمان استمراره جغرافياً وهوياتياً، صراعٌ قد يأخذ منحىً دموياً كما تعودنا بين الاخوة، ويحرف البوصلة تماماً عن "اسرائيل" والولايات المتحدة بصفتها ضمانات محتملة للكيانية الفطرية واستمراريتها.

ان هزيمة مشروع التوطين لن يتأتى بتعزيز الكيانية الفطرية، لأن هذه الكيانية هي مفتاح هزيمتنا أمام "اسرائيل"، ومفتاح فبركة صراعات داخلية على أو هام فارغة من اختراع فذلكات فكرية لا اساس لها لا في التاريخ ولا في المجتمع، وستؤدي بالتالي الى تثبيت مشروع التوطين بشكل نهائي. ان النضال ضد "اسرائيل" بكل ابعادها، وليس قضية التوطين فقط، يستحيل ان يتم بأدوات وابعاد قطرية، بل العكس، فهذه الادوات ستكون هي السبب الأول في الهزيمة وتثبيت المشروع النقيض.

ان الجميع مدعوون في هذه اللحظة التي يتسارع فيها طرح قصة الوطن البديل بنفس التسارع الذي يتم فيه تسويق اطروحات الهويات القطرية والقطر-أولاً (وهذه ليست صدفة)، الى العمل على الادوات الموضوعية التي يمكن ان تُنجح النضال، لا أن نركض في المسار المحدد بنهاية معروفة: الانعزاليون الاكراد (وليس كل الاكراد)، والانعزاليون الشيعة (وليس كل الشيعة)، والانعزاليون الموارنة (وليس كل الموارنة)، والانعزاليون السنة (وليس كل السنة) ... الخ، كلهم، كل الانعزاليين، ينتهون عاجلاً أم آجلاً في الحضيض الامريكي/الاسرائيلي، مهما رفعوا من رايات حمراء أو صفراء أو خضراء، لأن الواقع الموضوعي هكذا: لا ينتصر الضعفاء الا بتكاتفهم في مشروع نضالي واحد يصوغ هويتهم الحقيقية المشتركة، أما صناعة الهويات المزورة، فهي لن تؤدي الا الى الالتقاء المفاهيمي مع السلطة السياسية، والليبراليين الجدد، ومن يقف خلفهما، وهو بلا شك لقاء قاتل.

*كاتب من الاردن، أمين سر منتدى الفكر الاشتراكي، ومقرر لجنة حماية الوطن ومقاومة التطبيع النقابية.

الهوامش

- (1) انظر حول هذه الاتفاقيات: حسن الامين، سراب الاستقلال في بلاد الشام 1918 – 1920، بيروت: رياض الرئيس للكتب والنشر، 1998.
- (2) ناهض حتر، الاردن: نهاية ايدولوجية "الاصلاح"، بيروت: الرأي الآخر، العدد 16/15، كانون اول/كانون ثاني 2007 – 2008، ص74.
- (3) ناهض حتر، كلمة القيت خلال المسيرة التكريمية للروائي والمفكر غالب هلسا، ماعين، الجمعة 2007/8/31.
- (4) ناهض حتر، الاردن: تناقضات تناحرية وانفجار مؤجل، الاخبار (لبنان)، 10 حزيران 2008.
- (5) زيدان كفاي، تاريخ الاردن في العصور القديمة، عمان: منشورات البنك الاهلي، 2006. طبعا لا يغيب عنا ان هذا المؤسس هو رئيس الدائرة الثقافية في البنك الاهلي والمسؤول عن اختيارات النشر والدعم فيها!
- (6) ناهض حتر: سوريا والاردن: اعتراف متبادل بـ"دولتين مركزيتين" في بلاد الشام، الاخبار (لبنان)، الثلاثاء 4 آذار 2008.
- (7) ناهض حتر، الاردن: تناقضات تناحرية وانفجار مؤجل، مذكور سابقاً.
- (8) ناهض حتر، نجمة الاردن، العرب اليوم (الاردن)، 31 ايار 2008.
- (9) البيان التأسيسي لحركة اليسار الاجتماعي الاردني، بيروت: الرأي الآخر، العدد 17، شباط 2008، ص35.
- (10) عدنان خريسات، صفحات مطوية من تاريخ السلط السياسي، الدستور، السبت 20 تموز 2002، ص8.
- (11) نفس المرجع اعلاه.
- (12) هشام البستاني، في الذاكرة المفقودة: من اختراع "فلسطين" الى اكتشاف "لبنان"، الأداب (بيروت)، العدد 7/6 2005، ص ص 107 – 109.
- (13) راجع مثلاً: سليمان بشير، جذور الوصاية الاردنية: دراسة في وثائق الارشيف الصهيوني، بيروت: قدمس للنشر والتوزيع، 2001.

(14) ناهض حنتر، أية حلول في الاردن؟ بيروت: الرأي الآخر، العدد 18، آذار 2008، ص ص 34 – 37، والمقال ذاته منشور تحت عنوان آخر في: الاخبار (لبنان)، 22 كانون الثاني 2008.

(15) في نقد الدولة ثنائية القومية والدولة الديمقراطية العلمانية واوهام الحل القطري في فلسطين، انظر: هشام البستاني، من أجل مانيفيسنو ماركسي عربي حول القضية الفلسطينية، كنعان النشرة الالكترونية، السنة السابعة، العدد 1311، 21 تشرين الاول 2007،

<http://www.kanaanonline.org/articles/01311.pdf>

وايضاً: عادل سمارة ومسعد عريبي، نحو حل إشتراكي في فلسطين: مناقشة نقدية في حل "الدولة الديمقراطية العلمانية"، <http://www.kanaanonline.org/articles/01307.pdf>.

(16) غسان فخر الدين، من طمس تاريخ الاردن، ولماذا؟ بيروت: الرأي الآخر، العدد 16/15 – كانون الاول/كانون الثاني – 2008/2007، ص 90.

(17) لمزيد من التعمق في هذه المسألة، انظر: هشام البستاني، لماذا يجب ان نقاطع الانتخابات النيابية،

<http://sarayanews.com/default.asp?mode=more&newsID=594&catID=28>

(18) الرأي، الاحد 25 أيار 2008، ص 24.

(19) انظر في ذلك الاطروحة الهامة لمحمد جابر الانصاري في مؤلفه الهام: الفكر العربي وصراع الاضداد، بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 1999، ط2.

(20) ألغى هذا الموضوع لاحقاً عن الموقع الالكتروني لليسار الاجتماعي واستعيض عنه بموضوع آخر – والرابط السابق الى الموضوع كان:

http://joleft.net/news/index.php?option=com_content&view=article&id=190:2008-04-19-08-15-09&catid=45

• الآراء الواردة في المقالات لا تعبر بالضرورة عن رأي إدارة الموقع أو محرري "كنعان".

• عند الاقتباس أو إعادة النشر، يرجى الإشارة الى "كنعان".

• يرجى ارسال كافة المراسلات والمقالات الى عنوان "كنعان" الالكتروني: mail@kanaanonline.org

- Please write to us or send your contributions to: mail@kanaanonline.org.
- To visit Kana'an website, please go to: <http://www.kanaanonline.org>.
- To subscribe to our mailing list, please send a blank e-mail message to arabic-join@kanaanonline.org.
- To unsubscribe from our mailing list, please send a blank e-mail message to arabic-leave@kanaanonline.org.